ليلة حالكة

في ليلة من ليالي الشتاء الحالكة خرجت وشقيقيَّ لري حقل الذرة كانت الساعة تقترب من منتصف الليل، لم يكن خروجنا في هذا الوقت باختيارنا ولكنه دورنا في استخدام الساقية، فالحوض الزراعي كبير، وكل فلاح له دوره في الري باستخدام هذه الساقية التي اشترك الفلاحون جميعاً في إنشائها.

الساقية بجوار الترعة وحولها أشجار كثيفة تزيد الليل ظلمة.. يبدو أننا في الليالي الأواخر من الشهر الهجري، فكّ من كان قبلنا ماشيته من الساقية، وعلّقنا ماشيتنا، ووزعنا العمل فيما بيننا، كان نصيبي أن أجلس وحدي إلى جوار الساقية، أتابع الماشية، وشقيقيَّ يتابعان الماء في الحقل حتى لا تتمزق الحدود الفاصلة بيننا وبين الجيران فترتوي أرضهم دون قصد منا فيحدث التلف لزرعهم لأنهم رووا قبلنا.

الحقل يبعد عن الساقية بحوالي نصف ميل تقريباً، وكان الذرة عالياً بارتفاع مترين تقريباً، بمعنى أنني لا أستطيع رؤيتهما ولا أتمكن من سماع صوتيهما..!!

ظللت أدور وراء الجاموسة المعلقة في الساقية، أحثها على السير كلما توقفت كي ننجز عملنا.

اعترني قشعريرة فجأة، أحسست أن شيئاً خفياً يدور من خلفي، أخشى أن أنظر بطرف عيني فأرى ما يفزعني، استعذت بالله، وقلت أشغل نفسي بالتفكير في محاضرات الغد، ففي الصباح سأذهب إلى الكلية لحضور المحاضرات المقررة، ثم الذهاب إلى المكتبة لإعداد بحث قد طلب مني.

وبينما أدور خلف الماشية لمحت رجلاً يرتدي قميصاً أبيضاً من الدمور وعليه صديري من قماش حريري أبيض بخطوط سوداء رفيعة، نزل الرجل على صخرة في الترعة وضعها أحد الفلاحين ليتمكن من الوضوء أمام مصلى صغير محاط بطوب لبن بارتفاع نصف متر تقريباً، ومفروش ببعض الحشائش والقش.

تذكرت أنني لم أصل العشاء؛ فقد نمت بعد صلاة المغرب، ولم يوقظني إلا أخواي وهما يستعدان للمجيء إلى هنا، فناديت الرجل:

ـ انتظرني حتى نصلي العشاء في جماعة.

لم يرد عليّ وظل منهمكاً في وضوئه، تركت الساقية وذهبت نحوه لأتوضأ وأصلي خلفه..ما إن اقتربت من المكان حتى وجدت الرجل يقفز في الترعة بسرعة مذهلة، ولم يظهر منه شيء، فعدت من جديد إلى الساقية، فظهر لي مرة ثانية، فظننت أنه كان يلاعبني أو يريد تخويفي فعدت إليه ثانية، فقفز مرة ثانية في الماء، هنا وجدت شعري يطقطق، فأسرعت عائداً إلى الساقية.. أحسست بأن الأشجار الموجودة على شاطئ الترعة تتساقط من خلفي شجرة وراء شجرة، لدرجة أني أحسست بأن فروعها تتساقط على أعقابي، تركت الساقية وجريت نحو شقيقيّ، شعرت بأن حقول الذرة تتساقط أعوادها عن اليمين وعن الشمال، أطلقت ساقيّ للريح حتى وصلت الحقل وناديت أخويّ بصوت مرتفع فيه شيء من الخوف والفزع، خرجا إليّ سويًا، وأخبراني بأن الحقل أوشك على الانتهاء.. قصصت عليهما ما شاهدته منذ لحظات، قال أحدهما متهكماً:

ـ ما شاء الله على الرجال.. !! كيف تترك الجاموسة وحدها في الساقية؟! لابد أنهم لصوص أرادوا سرقة الجاموسة فقاموا بتخويفك حتى يتمكنوا من حلّ الجاموسة وأخذها.

فقلت بانكسار:

ـ وما العمل؟

رد بعنجهية:

ـ أنا سأذهب لهؤلاء الأشرار ألقنهم درساً لن ينسوه، حتى يكونوا عبرة لغيرهم.

أسرع الخطا نحو الساقية ومشيت وأخي الثاني على مهل خلفه.

ما إن وصل شقيقي إلى الترعة حتى وجد أمامه كلباً ضخما كأنه حمار يسد الطريق عليه، نظر إلى الكلب في غيظ، ونظر إليه الكلب في غيظ، وجد عيني الكلب تختلف عن عيون الكلاب، وحجمه يختلف عن أي حجم لكلب مهما كان حجمه كبيراً.

جف ريقه، ولصق لسانه في سقف حلقه ولم يستطع النطق بكلمة، والكلب يتأمله بنظرات استعلاء حتى وصلنا إلى المكان فاختفى الكلب فجأة، ومشينا نحو الساقية، جلسنا سويا بجوار الساقية، شعرت بالأمان بعض الشيء، فطلبت من شقيقي الأكبر أن أنام قليلاً في المصلى..!

وجدت خرقة سوداء ملفوفة في المصلى وضعت رأسي عليها ورحت في نوم عميق..!

استيقظت على صوت الرجل الذي يأتي دوره بعدنا في السقيا، كانت الساعة تقترب من الثالثة فجراً، أيقظني الرجل حتى أتجهز لصلاة الفجر، يريد أن يصلي الفجر معي في جماعة.

نزلت إلى الصخرة التي كان يقف عليها الرجل الغامض، وتوضأت في الترعة، ونزل بعدي الرجل توضأ، وتجهزنا للصلاة، ما إن انتهى المؤذن حتى أقمنا الصلاة، ووقفت إماماً للرجل، وأثناء الركوع وجدت الرجل ينتفض انتفاضة ويقفز من مصلاة إلى خارج المصلى، فسلمت وسألته لماذا قطعت صلاتنا بهذه الطريقة، قال والفزع يتملكه:

ـ انظر في المصلى .. ألم ترهذا الثعبان الضخم؟!

فنظرت فإذا بثعبان أسود طويل يتسحب من المصلى متجهاً إلى الترعة حتى نزل في الماء، نظرت ثانية في المصلى لأبحث عن الخرقة السوداء الناعمة التي كنت أنام عليها فلم أجد شيئاً فعلمت أني كنت واضعاً رأسي كل هذه المدة على الثعبان دون أن أدري.. بدأ الخيط الأبيض يظهر في الأفق وبدأت تباشير الصباح تبعث الأمن في النفوس، أخذنا أشياءنا وعدنا إلى منزلنا قبل الخامسة صباحاً.

******